الحكايات الشعبية في الرواية الجزائرية

Folk tales in the Algerian novel

ماموني عبد الرحمان

المدرسة العليا للأساتذة بشار

مخبر رعاية الابتكار والمؤسسة الناشئة لخريجي التعليم العالي في اتجاه التنمية المستدامة والتعامل مع الظروف الطارئة.

(الجزائر)

mamouni1960@yahoo.com

تاريخ الاستلام:2023/01/02 تاريخ القبول:2023/04/05 النشر:2023/05/31

ملخص:

للحكايات الشعبية أهمية كبيرة في حياة الشعوب إذ هي تتيح للإنسان لحظات لنسيان الواقع القاسي حين يتم اللجوء إلى المتخيل الذي تتحقق فيه الرغبات الدفينة . و الروائي حين يعتمد تقنية تفاعل الأجناس الأدبية فإنه يجعل من الحكاية الشعبية وسيلة تحيل نصه الروائي إلى نص متحرر يزخر بشتى فنون التعبير المختلفة ، تلك الفنون التي صارت بها الرواية عملا أدبيا مفعما بالحيوية والحركة والمواقف الإنسانية. وصارت تلك الحكايات الشعبية خيوطا ناسجة لمضمون الرواية ولبنائها الفني، ومساهمة في تحقيق معمارية السرد السطحية والعميقة. و هذا المقال يبحث في مدى إسهام الروائي الجزائري في توظيف الحكايات الشعبية لتحقيق غايات جمالية و فنية.

الكلمات المفتاحية: الحكاية الشعبية ؛ المتخيل؛السرد ؛ تفاعل ؛ جمالية.

Abstract :

Folk tales are of great importance in the lives of people; they provide human beings with moments to forget the harsh reality when resorting to the imaginary, in which buried desires are fulfilled. When the novelist adopts the technique of the interaction of literary genres, he makes the folk tale a means of transforming his fictional text into a liberal text abounding in various different arts of expression. These are the arts in which the novel became a literary work full of vitality, movement and human attitudes. These folk tales became weaving threads for the content of the novel and its artistic construction, and a contribution to the realization of the superficial and deep narrative architecture. This article examines the extent of the Algerian novelist's contribution to employing folk tales to achieve aesthetic and artistic goals.

KeyWords: Folk tale;imagination;Narrative;interaction;aesthetic

المقدمة:

إذا كان العرب قد عرفوا فن القص والحكاية الشعبية منذ العصر الجاهلي وعبر المراحل التاريخية المختلفة، فإن الروائي الحديث استطاع أن يتجاوز ذلك إلى جعل هذه الحكايات الشعبية تخلل عالمه الرحب: إنه عالم الرواية.

وفي هذا المقال تتبع لأهم أطوار مسار الحكاية الشعبية في العالم العربي مع ذكر أهم القصاصين وأثرهم على الناس. ثم بيان إسهام الروائيين الجزائريين وهم يخوضون غمار التجريب في توظيفهم للتفاعل الأجناسي في رواياتهم وذلك باستعارة حكايات شعبية مختلفة، وجعلها ترصع متونهم السردية. وقد تنوع توظيف الحكايات في ثنايا الروايات بين حكايات من المضي لبناء الحاضر، وأخرى ذات أبعاد سياسية، وأخيرة للتربية والتأديب.

وقد استأنست في ذلك بمنهجين: التاريخي لتتبع تطور ومسار الحكاية الشعبية، والتحليلي للوقوف على مضامين هذه الحكايات وبيان أبعادها وسر توظيفها.

فهل كان الروائي الجزائري موفقا في تعامله مع تقنية تداخل الأنواع؟

I. تعريف الحكاية الشعبية:

جاء في تعريف الحكاية بأنها "سرد قصصي يروي تفصيلات حدث واقعي أو متخيل... وهو ينطبق عادة على القصص البسيطة ذات الحبكة المتراخية الترابط. وقد تروى في أكثر الأحيان بضمير المتكلم..." (إبراهيم فتحي، 1986، الصفحات 140-141)

إنها تفصل حدثا واقعيا أو متخيلا، وتتسم بالبساطة في حبكتها وأحداثها. كما تعرف الحكاية بالمفهوم المعاصر بأنها "هي الحكاية التي تروى ويسمعها الآخرون، ولم تنشر بعد، مستندة إلى خبر، أو حدث خاص، أو تاريخ، يكشف بعض الخبايا والنفوس البشرية. وتكون الحكاية سارة أو حزينة، سرية أو علنية..." (محمد التونجي، 1999، صفحة 373)

الحكاية –إذا– تقوم على رواية الراوي، وسماع الحاضرين الذين تأسرهم الوقائع، ويأسرهم الخيال. وهذا الأخير كما هو عماد الوعي الجمعي في تفسير الحوادث والملابسات إذ "الخيال الذي أبدع الأسطورة في طور من أطوار التاريخ الإنساني، هو الذي صنع الحكايات الشعبية، فسر بها أحداثا تاريخية، أو علل لبعض التغيرات الاجتماعية، أو نسج للعبرة أو للسمر الخالص ألوانا من طرائف الأحاديث." (أنس داود، صفحة 91)

II–تطور الحكاية الشعبية:

وقد عرف العرب في الجاهلية فن القص إلى جانب براعتهم في الشعر، فكان لهم "قصص وحكايات وأسمار يقطعون بها أوقات فراغهم، ويقصرون لياليهم الطويلة في صحرائهم، ويستمدون أصولها من اخبار أيامهم ووقائعهم وسير ملوكهم وأبطالهم، وأحاديث صعاليكهم وعشاقهم، ومشاهداتهم في رحلاتهم وأسفارهم، وما يطلعون عليه من كتب دينية وغيرها." (محمد خير الشيخ موسى، 2006، صفحة 13)

وعندما جاء الإسلام، انصرف المسلمون عن هذه الحكايات إلى الانشغال بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وإلى أمر الفتوحات. ولكن فئة من المسلمين وجدت في القصص موضوعا يستعمل في الوعظ والإرشاد

الدينيين حيث "كانوا يجرون في قصصهم على سبيل الوعظ والتذكير، والاعتبار بقصص القرآن وأمثاله." (محمد خير الشيخ موسى، 2006، صفحة 23)

كانت هذه الفئة من القصاص تستعين في وعظها بالقصص الديني إذ القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من ألوان القصص التي فيها العبر والعظات حيث "ضرب المثل بالحيوان، وقص عن غراب ابني آدم، وبقرة بني إسرائيل، وناقة صالح، وهدهد سليمان، وقصته مع النمل، وفيل أبرهة وطير الأبابيل..." (أنس داود، صفحة 131)

كانت تلك القصص والحكايات متداولة بين الأحياء والقبائل العربية بصورة شفهية، ولم يدون منها إلا ما نقله بعض الرواة في كتبهم "ولعل أقدمها ما ينسب إلى كعب الأحبار (ت 32 هـ) من قصص وسير وأحاديث من "سيرة الإسكندر وما فيها من العجائب والغرائب"... وكتاب عبيد بن شرية الجرهمي (ت نحو 67 هـ) في "أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، وكتب وهب بن منبه (ت 110 هـ) ككتاب "التيجان في ملوك حمير..." (محمد خير الشيخ موسى، 2006، صفحة 14)

وفي عهد بني أمية انتشر القص، ووجد كثير من القصاصين الذين يجمعون الناس حولهم ليسمعوهم أخبار السابقين. وقد "أصبح في كل مسجد جامع قاص يعظ الناس ويذكرهم. وكان للخلفاء والأمراء دور كبير في الحض عليه وتشجيعه." (محمد خير الشيخ موسى، 2006، صفحة 23)

أما في العصر العباسي فقد اتسع انتشار القص "وتنوعت طرقه ومذاهبه وأساليبه، ولم يعد محصورا في المساجد، وساحات القتال، أو مقصورا على الوعظ والتذكير فحسب..." (محمد خير الشيخ موسى، 2006، صفحة 24). لقد ازدهر فن القصص، ولم يعد أصحابه يكتفون بمجرد الوعظ والإرشاد، بل ذهبوا "إلى مجال آخر هو الحكايات والخرافات لينتقل من المرحلة الشفهية إلى مرحلة التدوين والكتابة، ويأخذ خاصيته كجنس من أجناس الخطاب النثري الكتابي، بعد امتزاج الثقافات في العصر العباسي، وامتزاج العرب بالأمم الأخرى خاصة الفرس الذين أخذوا عنهم كثيرا من القصص." (مصطفى البشير قط، 2010، صفحة 128)

وكان للترجمة دور في ازدهار فن القص العربي في هذا العصر، فقد ترجمت كتب هندية وفارسية ورومية إلى العربية. ومن أشهر هذه الكتب: كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع (ت 142 هـ)، وكتاب "النمر والثعلب" لسهل بن هارون (ت 215 هـ)، وقصة هذا الأخير "واحدة طويلة ومترابطة، ذات أحداث كثيرة ومتلاحقة، تدور على ثلاث شخصيات رئيسية هي: النمر الطاغي، والذئب الجحود، والثعلب الحكيم. وتهدف إلى تحقيق عدة غايات فكرية وسياسية وأخلاقية وأدبية." (محمد خير الشيخ موسى، 2006، صفحة 35)

وظهرت فئة من القصاص، تتخذ من القص حرفة تجني منها الأموال، إذ "اتخذوا القص مكسبا ومعاشا، يبتزون به أموال العامة، ويتوّسلون لذلك بوسائل مختلفة، كميلهم إلى الغرائب والعجائب." (محمد خير الشيخ موسى، 2006، صفحة 26)

والحكايات الشعبية لها أهمية كبيرة في حياة الشعوب خاصة التقليدية منها، ذلك أنها "تقدم لحظات لنسيان الواقع القاسي عن طريق اللجوء إلى المتخيل الذي يغمر الفراغ الواقعي. إنها الحلم الجماعي الذي يهرب فيه الجميع من ذاته، ويحقق من خلاله رغباته الدفينة" (فخر الدين محمد، 2013، صفحة 21).

فمن الثراء الخيالي لهذه الشعوب تنبثق الحكايات الشعبية، وفي ظلالها يهدئ الإنسان من قلقه ومن الضغوط الحياتية المريرة. فالحكايات الشعبية "هي —إذن– عبارة عن سرود تنتجها الطبقات الشعبية، تستهلكها، وتجتر قيمها باستمرار، وتتوارثها وتحافظها عليها حتى تضمن لها البقاء، وتساعدها على تجاوز قساوة الظروف التي تعيش فيها" (فخر الدين محمد، 2013، صفحة 22).

III. الحكايات الشعبية المتخللة في الرواية الجزائرية:

دأب الروائيون الجزائريون –في سياق تيار التجريب– على استعارة الحكايات الشعبية وتوظيفها في السرد الروائي الذي يبدعونه . وقد اتخذ هذا التوظيف مظاهر مختلفة منها:

1.حكايات الماضي لتغيير الحاضر:

كثير من الروايات الجزائرية تستلهم جزءا من حوادثها من الماضي وملابساته المختلفة. يأخذ الروائي من التاريخ، ويخوض غمار الحوادث الغابرة، لا يعنيه أساسا الحرص على موضوعية الواقع وإنما "يتعامل مع التاريخ تعاملا روائيا، فيعيد دمج الماضي مع لحظة الكتابة، فيتحول الماضي التاريخي إلى إبداع، وإلى وقفة جمالية خاصة تقلب التاريخ فتجعله ديمومة حضارية متواصلة في كيان البشر." (عبد الرزاق بن دحمان، 2013، صفحة 224)

1.1.حكاية الجازية:

يتحول الماضي إلى رؤيا.. وإلى مادة تغير من ملامح الحاضر الأليم. فالجازية الهلالية التي رحلت مع قومها من مرابع نجد إلى مصر ثم إلى المغرب العربي، وكانت ذات جمال وعقل راجح وصاحبة رأي ومشورة.. تلك المرأة العربية الأصيلة وظف الروائي ابن هدوقة شخصيتها في روايته (الجازية والدراويش) وظفها بطلة تعمل على تغيير الواقع المزري الذي يجثم على صدور سكان الدشرة.. وبالفعل استطاعت أن تبدأ التغيير لأن "الجازية أخرجت الدشرة من سبات القرون. أعطتها حياة حافلة خصبة بدل حياتها الميتة.. أشيعت حولها ألف خرافة، تفوق ما شاع من خرافات حول الجازية الهلالية... كانت غريبة الأطوار، لا تستقر على حال، عيونها تعد وتتوعد ! بسمتها ترتفع بالنفس إلى البعيد من السدم. لكنها كالنور قربها محرق !" (عبد الحميد بن هدوقة، 1991، صفحة 24).

كان همّ الجازية في رواية (الجازية والدراويش) هو تعليم الناس وتثقيفهم، وتحريرهم من الخرافات. وكانت الجازية في رواية (اليربوع) لحسين فيلالي تحمل نفس الهم، وتطمح لذات التغيير فهي حكاية شعبية متواصلة لامرأة تشعر بالغربة أينما حلت أو ارتحلت تقول: "أصبحت كلما حللت بمكان غريب تركت به جزءا من ذاتي، وكلما عدت إلى الوطن أحسست بتلك الأجزاء تلتئم، لتكون ذاتا غريبة عن ذاتي." (حسين فيلالي، 2011، صفحة 34)

2.1.حكاية ودعة مجلية سبعة:

الروائي عبد المالك مرتاض في روايته (صوت الكهف) يخاطب بطلة الرواية (زينب) التي ترمز للجزائر وشعبها الأبي، ويدعوها للصبر على الشدائد والمحن. ويستحضر هنا حكاية (ودعة مجلية سبعة) فيقول:

"وتذكرين حكاية (ودعة مجلية سبعة).. حين مسخت زنجية استعبدت فأصبحت راعية المواشي. رفضت الزنوجة. ليس عنصرية ولكن من باب أنها في الأصل كانت بيضاء البشرة... سرق منها اللون، كما سرقت منها الكرامة ! الذل بعد العز. والمسخ بعد الجمال الفتان. طلبت ودعة من الأشجار أن تشاركها بكاءها... طلبت إلى المواشي التي ترعاها... ودعة التي كانت تبكي حتى تبكي معها المواشي وتحن لها... أنت من يبكي معك يا زينب؟ والعقد يبكي معك. ها هو ذا يعزيك." (عبد المالك مرتاض، 2011، صفحة 71)

إذا فحكاية (ودعة) وما فيها من مآس وآلام هي نفسها حكاية (زينب) في واقعنا المعاصر الذي يتطلب من الجميع الصبر ثم الصبر حتى نتجاوز ما يعترضنا من محن وصعوبات.

وهذه الحكاية قد تخللت رواية (الخيل تموت واقفة) لكاتبها عبد القادر بن سالم تحت عنوان (طوله ووديعة) وقد أوردها الكاتب بصورة أكثر تفصيلا:

"تقول الحكاية:

يروى أن امرأة أنجبت تباعا سبعة أولاد، وكانت تتمنى أن ترزق ببنت تساعدها ويفتخر بها إخوتها الذكور.. وكان الإخوة حين يخرجون للعب يسمعون تهامس أترابهم بأنهم لا يملكون أختا، وقد ضايقهم ذلك الكلام والهمس حتى إنهم ذهبوا لأمهم محرجين، وأخبروها بما يقال أمامهم وخلفهم. فسكتت الأم مرغمة.. وفي حملها الثامن تمنت أن ترزق ببنت كما تمنى الإخوة السبعة ذلك.. وانتظرت وانتظروا اليوم الموعود فلفهم الخوف.

فاقترحت عليهم الأم بأن يخلوا المكان على أن تكلف الخادمة بإخبارهم عن طبيعة المولود بإشارة، فإن هي لوحت لهم بالمنجل فإن ذلك يعني الجلاء أن ينجلوا لأنها أنجبت ذكرا، وإن هي لوحت لهم بالمحشة فغن ذلك يعني أنها انجبت بنتا كما يرغبون وعليهم أن يتحاشوا أي يقبلوا. ولما تم الوضع وكانت بنتا، أخطأت الخادمة فلوحت للإخوة السبع بالمنجل فانجلوا إلى مكان مجهول...

ومرت السنوات، وكبرت البنت، وأضحت تسمع كلام الناس من أنها هي السبب في إجلاء إخوتها ولكنها لم تعرف الحقيقة التي أخفتها عنها أمها سنين، ولما ضايقها الكلام والهمس ألحت على أمها بأن تعلن لها عن حقيقة ما يقال، ولكنها لم تفلح فعمدت إلى حيلة ترغمها على البوح، فسخنت ماء، وأدخلت يد أمها فيه وشدت عليها بقوة، وطلبت منها الإقرار فكان لها ذلك فعرفت البنت حينذاك القصة كلها..

وتحت هول الصدمة، قررت البنت الرحيل بحثا عن إخوتها ودرءا للعار الذي لصق بها، ورافقها عبد وعبدة، فركبت جملا وشقوا الطريق واستمروا ليالي وأياما. وهنا بدأ العبد يشفق على عبدته ويستاء منها فكان يقول لها زاجرا "انزلي من على الجمل واتركي سيدتك تركب".. وكان كلما قال لها ذلك تنطق ودعة من الودع المعلق على

رقبة الجمل وترد على العبد بقوة بأن يترك سيدته راكبة ولا يخرج عن جلدته. فيعمد إلى رمي تلك الودعة أرضا وهكذا تكرر المشهد إلى أن أتى على نهاية الودع كله. وحثوا السير إلى أن وصلوا إلى بئرين أحدهما حليب والآخر قطران، وهنا أراد العبد أن يعمد إلى حيلته، فأنزل العبدة في بئر الحليب فأخرجها بيضاء، ثم أنزلها هي في بئر القطران فصارت عبدة سوداء.. ولما وصلوا البلدة التي يستقر بها الإخوة أخبرهم العبد وكان يعرف ذلك مسبقا، بأنه أتى بأختهم وسلمهم العبدة التي صارت بيضاء، وبقيت أختهم الحقيقية خادمة..." (عبد القادر بن سالم، 2014، صفحة 41)

لقد نجحت حيلة العبد في تزييف الحقائق، ولكن حبل الكذب والتزييف قصير إذ مع الوقت اكتشف الإخوة الحقيقة وأقر العبد والعبدة بالسر "وعادت أختهم إليهم فجددوا الاحتفال والأفراح... وكانوا يقدرونها ويحترمونها" (عبد القادر بن سالم، 2014، صفحة 42)

إن هذا التقدير قد جرّ على وديعة نقمة زوجات إخوتها بحيث دبرن لها مكيدة فأطعمنها بيض الثعابين داخل أكلها دون أن تعلم، وبذلك "مرت شهور، وإذا ببطنها ينتفخ وهنا نجحت خطة الزوجات الست. فأخبرن أزواجهن بأن العار قد لحق بهم وأختهم حامل، فثارت ثائرتهم... وقرروا أن ينتقموا منها، فأخذوها إلى بئر ورموها فيه لتموت وفضيحتها، وكان الأخ الأصغر متأسفا.. يأتي لها خفية بالطعام.

ولما فقس البيض وبدأت الثعابين تخرج من فمها وأضحت وديعة في خطر وكانت تطلب من الله أن ينجيها من هذه المكيدة" (عبد القادر بن سالم، 2014، صفحة 42)

لقد أنجى الله وديعة من هذا الخطر الداهم إذ "مرت قافلة فتحسسوا في البئر حشرجة وأنينا، فساءلوا فردت عليهم، وحين أيقنوا أنها فتاة تحيط بها الثعابين أسرعوا إلى نجدتها. فاقترحت عليهم بأن ينزلوا سلتين، واحدة مملوءة بأكل وفواكه وأخرى فارغة، ففعلوا. فتعلقت الثعابين بالسلة المملوءة، أما هي فقد ركبت السلة الفارغة ونجحت..." (عبد القادر بن سالم، 2014، صفحة 42)

وحدثت ملابسات كثيرة انتهت بلقاء وديعة بإخوتها واجتمع شملهم أما الزوجات الماكرات فقد تعرضن لعقاب شديد.

كانت هذه الحكاية من أشهر الحكايات في بلاد قير فهي تجمع بين الخوف والمتعة: فالخوف يتملك سامعها حين تذكر المواقف المرعبة التي حدثت لوديعة التي صارت عبدة ذليلة بعد أن كانت حرة أبية، وتحدث المتعة حين تتكشف الحقائق وتعود وديعة إلى وضعها الأصلي اللائق بها وينال الجناة عقابهم.

3.1.حكاية عنترة وذياب والزناتي:

إن الأحداث التي وردت في حكاية عنترة وذياب والزناتي ذكرها الكاتب فيلالي حسين في روايته (اليربوع) على أنها جرت في جبل عنترة شمال بلدة بشار حيث "حمل ذياب رمحه المسموم، وكمن لعنترة عند مورد الماء ورماه بسهم أصاب منه مقتلا، فسمع له بضواحي العبادلة رغاء، كرغاء الفحل الهائج، وخر صريعا...

والزناتي خليفة كان من العماليق، كان يفترش أذنا، ويتغطى بأخرى، ويزعم بعض الرعاع أن الأواري، والسلاسل التي كان يربط بها عنترة الأدهم ما تزال في جوف الجبل، وأن الذئاب والضباع تختبئ في نعال الزناتي...

كان الزناتي إذا احمرت عيناه ينام شهرا كاملا، وإذا ازرورقت ينام شهرين متتاليين، وكان سكان بشار القدماء يصعدون الجبل أيام نومه يتفرجون على أعضائه العجيبة، والحوامل من النساء كنّ يتخذن من شعر رأسه جدائل، يشددن بها حملهن، لعلهن ينجبن أبناء عماليق..." (حسين فيلالي، 2011، صفحة 16)

إن مثل هذه الحكايات الشعبية وما فيها من أخبار تتجاوز المعقول، إنما كان يقصها الكبار على صغارهم حتى يأخذوا منها العبرة في أن يكونوا أصحاب قوة وشجاعة ليبنوا حاضرهم، وليسيروا بأمتهم نحو الأفضل.

2.حكايات شعبية ببعد سياسي:

1.2.حكاية لونجة بنت الغول:

لونجة هي حكاية من التراث الشعبي الجزائري، تتداولها الأجيال. ولونجة هي "فتاة جميلة ذات جمال فاتن مشرق، لكنها كانت ابنة لأبوين قبيحين جدا ووحشيين، إذ إنها ابنة الغول وزوجته الغولة..." (محمد الحصان، 2019)

كان جمال لونجة مثار حديث الناس، وكان الأمراء يرغبون في خطبتها، ولكنهم حين يعرفون أمر والديها يعزفون عن ذلك. وقد تقرب منها يوما شاب من عامة الناس اسمه مقيدس وأقنعها بأمر الزواج، وهو لا يحبها، وإنما "تقرب منها كي ينتقم من والديها الغول والغولة ويذيقها من المرار." (محمد الحصان، 2019)

ولما علمت الغولة بما يخطط له مقيدس، ألقت عليه القبض، ورمته في البئر في انتظار أن تلتهمه رفقة زوجها الغول وبعض أقاربها. لكن لونجة الفتاة طيبة القلب "عز عليها أن تفعل أمها بحبيبها هكذا، فذهبت إلى حيث البئر... ساعدته في الخروج. فضربها على رأسها، وماتت لونجة ابنة الغول..." (محمد الحصان، 2019)

وقد تحدث مرتاض في سرده الروائي عن زينب المرأة الحسناء ذات الشعر الطويل، والتي يحبها الجميع ويتوقون لرؤيتها، ولكنها تتعرض للألم والإيذاء من القادمين من الشمال... زينب رمز بها الروائي للجزائر في طيب أرضها وكثرة خيراتها، وقرن بين حالها وحال لونجة التي ذهبت ضحية جمالها وطيبة قلبها. ولهذا خاطب الكاتب سكان الربوة العالية: "وأنتم تحبون الشعور الطويلة. تتغنون بها وأنتم تحصدون... له. وشعرها الطويل الطويل، كقمح بني وكيل... تذكرون حكاية لونجة الحسناء.. ذات الشعر الطويل التي همت السعلاة بإيذائها.

ولم يكن فيها من السحر إلا شعرها الطويل. وزينب الـ... إنما سبتكم بشعرها الذي تفترشه إذا نامت، وترتديه لباسا إذا قامت." (عبد المالك مرتاض، 2011، صفحة 168)

لم تكن زينب التي شبهها الروائي بلونجة إلا الجزائر في جمالها ووفرة العيش والرزق فيها. ولم تكن السعلاة والغيلان إلا أعداء الجزائر الذين قدموا من وراء البحر قاصدين احتلال الأرض، وإلحاق الأذى بسكانها المسالمين الأبرياء.

وقد أفردت الكاتبة زهور ونيسي لهذه الحكاية الشعبية رواية كاملة تحت عنوان "لونجة والغول" ولكن الشخصيات فيها تحمل أسماء أخرى غير "لونجة" و"الغول" وهذان الأخيران لم يتم ذكرهما إلا قليلا في الرواية: الأولى

يوم عرس فاطمة التي تزوجت من رجل يبلغ الأربعين وهي لازالت في العقد الثاني، وكان "الذي أقبلت عليه فاطمة يوم عرسها بكل ما في النفس من توقع وأحلام، مشوبة بالرهبة والخوف، أخيرا ستكشف عن هذا الغول أو هذا الملاك..." (زهور ونيسي، 1993، صفحة 138)، والثانية حين زفت مليكة أرملة الشهيد أحمد إلى أخيه كمال. فهي "تتزوج بأسلوب بسيط جدا جدا، فهل هذا هو الزواج؟ نعم، في هذا الزمن الغول، هذا هو الزواج" (زهور ونيسي، 1993، صفحة 155) والأخيرة حين يقف كمال على قبر زوجته مليكة ويناجيها "مليكة أنت ملكة في مكان ما من الزمن، أنت لست مليكة يا مليكة، أنت لونجة بنت الغول... تلك التي تحكي عنها جداتنا، تلك الفتاة الجميلة التي لا يمكن ان يصل إليها أحد، لأنها تسكن قصرا عظيما، عالية أبراجه، تناطح السحاب، هو قصر الغول..." (زهور ونيسي، 1993، صفحة 221)

لقد وظفت الروائية زهور ونيسي هذه الحكاية توظيفا سياسيا لتكشف من خلاله عن وحشية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وعن ممارساته القمعية في حق الشعب الجزائري من قتل وتشريد وسجن. وقد رمزت الروائية بشخصيات الرواية إلى حقائق تاريخية وسياسية "يكون فيها (الغول) ذو الأفعال الأسطورية المرعبة رمزا للاستعمار، والأم المغتصبة رمزا للجزائر وطنا محتلا، و (لونجة) رمزا للثورة (1954- 1962) أما (نوارة) فتكون تبعا لذلك رمزا للحرية والاستقلال..." (عمر بن قينة، 2009، صفحة 257)

لقد كانت تلك الشخصيات رموزا لوطن بكامله، وطن يعاني شعبه بجميع أطيافه من كل أصناف العذاب التي سلطها عليه احتلال وحشي لا يعرف للرحمة ولا للإنسانية سبيلا.

2.2.حكاية الحصان الأبيض:

وتنفتح رواية "الحريق" لمحمد ديب على كثير من الحكايات الشعبية التي يرويها فلاحو وشيوخ بني بوبلان لبعضهم وصغارهم من ذلك ما قصه كومندار على الطفل عمر:

"كان قمر الصيف يزبد فوق الوهاد السوداء المنفغرة بين الجبال، لم يعد الوقت ليلا... وفجأة ترجعت في الأرجاء أصوات حوافر تقرع الأرض. انتصب الفلاحون جميعا على أقفيتهم... فرأوا تحت أسوار "المنصورة" حصانا أبيضا بلا سرج ولا لجام ولا فارس ولا عدة، يهتز عرفه بعدو جنوني... بهرهم بياضه، وغار الحصان العجيب في الظلام." (محمد ديب، 1970، صفحة 26)

إنه زمن عجائبي: ضوء القمر المزبد يبيد ظلام الليل، وحصان أبيض يوقظ بعدوه الغافين ثم يشق العتمة... تعلقت به قلوب وأنظار الفلاحين الذين "لم يرتجفوا هلعا.. فكروا في النساء والأطفال، قالوا لأنفسهم: عدوا في الليل يا حصان الشعب، عدوا إلى الشمس وإلى القمر، في ساعة النحس ونذير الشؤم" (محمد ديب، 1970، صفحة 27)

تلخص الحكاية التي قصها كومندار أحوال الجزائريين في الأرياف إبان فترة الاحتلال الفرنسي، فأوضاعهم مزرية، والخوف يسيطر على قلوبهم ولكنهم حين رأوا الحصان الأبيض الذي يرمز للثورة المأمولة زال خوفهم، واستبشروا خيرا بدنو فجر الحرية والانعتاق.

2.3.حكاية عزة ومعزوزة:

هي حكاية شعبية أوردها الروائي عبد المالك مرتاض في روايته (صوت الكهف) ترويها زينب لابنها الصغير ليلا تقول: "كان في قديم الزمان، عندما كان الذئب صديقا للنعاج، لا يفترسها. كان يأكل التين فقط. وماعزة لها بنتان: عزة ومعزوزة كل يوم كانت تذهب نحو الغابة، المرعى الخصيب تكدح من أجلهما، تعود محملة باللبن والعلك والحطب كل مساء. أمرتهما بان تغلقا الباب إذا خرجت، لا تفتحانه إلا حين تسمعانها تردد كلماتها المألوفة:

-عزة ومعزوزة، افتحا الباب يا ابنتي. جئت بالحليب في ضريعتي، والعلك في ضريستي، والحطب على قرينتي...

سمع الذئب الخبيث كلماتها. حفظها. أتقن تقليد صوتها. برع في لحنها. ذهب يوما يحاول. طلب إلى عزة ومعزوزة فتح الباب. ألح عليهما. هددهما أدركتا أن الصوت ليس صوت أمهما. رفضتا أن تفتحا. في تلك اللحظة عادت الماعزة من عملها اليومي. طاردت الذئب المعتدي. نطحته بقرنيها الطويلين الحادين. فر هاربا على وجهه ولم يعد إليهما..." (عبد المالك مرتاض، 2011، صفحة 81)

زينب رمز الجزائر في أصالتها وشجاعتها توصي أبناءها الصغار بألا يأمنوا جانب الأعداء، وألا ينخدعوا بكلامهم المعسول الذي يحمل في طياته السم القاتل. كما تبين لهم من خلال هذه الحكاية أن الحق لا يمكن استخلاصه من العدو إلا بلغة القوة.

3. حكايات شعبية للتربية والتأديب:

وهي الحكايات التي يذكرها رواتها لغرض تربية الصغار، وحثهم على الأخلاق الحميدة. وقد تكون هذه الحكايات في مواقف مختلفة ويتم إيرادها لغرض الزجر والتأديب.

1.3.حكاية اليربوع:

ومن هذه الحكايات ما روته الجدة لحفيدها سليمان من "أن اليربوع كان شابا وسيما، وقويا، وكان مولعا بشرب حليب الغزالة ساخنا، وكان يسابقها فيغلبها ويرضع حليبها، ويتركها تعود ضامرة الضرع..." (حسين فيلالي، 2011، صفحة 14)

لقد كان اليربوع يقوم بفعل فيه أذى كبير للغزالة إذ يشرب حليبها فتعود على صغارها فارغة الضرع. ولكن الظالم دائما تدور عليه الدوائر حيث "اشتكت الغزالة إلى الله ان يخلصها من شر اليربوع الماكر، فأرسل عليه ريحا باردة في يوم مظلم، سخرها عليه سبع ليال، فمسخته وأصبح على ما هو عليه الآن." (حسين فيلالي، 2011، صفحة 14)

إذا، لقد دفع اليربوع ثمن ظلمه، وكذلك ينبغي للحفيد سليمان ألا يظلم أحدا حتى لا يصيبه مكروه.

2.3.حكاية اليربوع السخي:

كان الفتى سليمان يقسم الصيد على أصدقائه ويذكر لهم "إن على اليربوع دعوة الصالحين، فلقد حدث أن مرت مجموعة من الحيوانات على شيخ صالح تائه في الصحراء فاستسقاهم، فأبوا، ولما كاد أن يشرف على الهلاك، مر به اليربوع فوجده فاقد الوعي فسقاه وأطعمه، فلما استفاق دعا الله أن يجعل فيه قوة حصان" (حسين فيلالي، 2011، صفحة 14)

وهذه الحكاية يرويها الكبار لصغارهم قصد تربيتهم على قيمة أخلاقية عالية وهي الكرم ومساعدة المحتاج.

3.3.حكاية علي الحوات:

ورحلة "علي الحوات" كانت حكاية شعبية متسلسلة ومترابطة، ما إن تنقضي واحدة حتى تنجلي أخرى أشد منها وأعتى إذ " يقال إنه دخل القرية راجلا، سمكته على كتفه، متدثرة بردائه... حاول أفراد فرق الشر ووحدات الفحش، أن يتعرضوا له. لكن قوة خفية صدتهم عن الهجوم عليه. راحوا كالمبهورين يسيرون خلفه في صف طويل حتى خرج..." (الطاهر وطار، 2013، الصفحات 8-9).

أبرز الروائي الطاهر وطار في هذه الحكاية قيمة الشجاعة وأثرها في حياة الأفراد والمجتمعات. فعلي الحوات الذي كان يبدو هدفا سهلا لأعدائه، صار قائدا تسير خلفه الصفوف بما فيهم الأعداء أنفسهم.

4.3.حكاية الطامة الزاحفة:

وفي رواية (الخيل تموت واقفة) للكاتب عبد القادر بن سالم ترد حكاية "طامة تنفث نارا حارقة تتقدم نحو المدينة، صدقها الكبار قبل الصغار..." (عبد القادر بن سالم، 2014، صفحة 45)

وهذه الحكاية التي انتشرت بين الأهالي في أرض قير، كانت توظف لتأديب الأطفال إذ "وجد الناس في هذه الحادثة مادة خاما لإسكات أطفالهم، وإرغامهم على النوم المبكر." (عبد القادر بن سالم، 2014، صفحة 45)

5.3.حكاية خوخو سارق الأطفال:

وكانت الأمهات في أرض قير تجتهدن ألا يخرج أطفالهن إلى الشارع بعد وقت المغرب، فتحكي الجدات لأحفادهن حكايات شعبية تحمل في ثناياها أخبارا مخيفة لما يمكن أن يتعرض له الأطفال في حال خرجوا من بيوتهم في الظلام ومصادفتهم لخوخو سارق الأطفال، فهذا الأخير "يخرج في الظلام، يأتي في صورة قريب نعرفه، يسألنا عن الأهل بأسمائهم، يروي حكايات مشوقة حتى إذا ما اطمأن إليه الطفل اقترح عليه أن يلعبا لعبة الغميضة، فيعصب عيني الطفل، ويبتعد به عن البيت. يفتح الطفل عينيه، فإذا هو أمام صورة خوخو المرعبة آكلة الأطفال." (حسين فيلالي، 2011، صفحة 10)

هكذا كانت الحكاية الشعبية وسيلة من وسائل التربية والتأديب في ظل شح الإمكانيات الأخرى المتاحة اليوم. كانت تلك الحكايات ترويها الجدات والأمهات للصغار قصد حثهم على فعل محمود ليقوموا به، أو تحذيرهم من تصرف غير مقبول ليتركوه ويبتعدوا عنه.

خاتمة:

لقد كان الروائي الجزائري متماهيا مع تيار التجريب. ومع مستجدات ميدان القص إذ جعل من تقنية التداخل الأجناسي مجالا لإثراء كتاباته الروائية ومن ذلك الحكايات الشعبية التي أحسن توظيفها، فازدانت بها الرواية الجزائرية وبرزت إلى القارئ أكثر غنى وتنوعا في شكلها ومضمونها.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم فتحي .(1986) .*معجم المصطلحات الأدبية* .تونس :التعاضدية العمالية للطباعة والنشر.
2. الطاهر وطار .(2013) .*الحوات والقصر–رواية* .–الجزائر :موفم للنشر.
3. أنس داود .(s.d.) .*الأسطورة في الشعر العربي الحديث* .
4. حسين فيلالي .(2011) .*اليربوع –رواية–،ط 1.* بشار، الجزائر :إصدارات دار الثقافة.
5. زهور ونيسي .(1993) .*لونجة والغول–رواية–،ط 1.* دمشق، سوريا :منشورات اتحاد الكتاب العرب.
6. عبد الحميد بن هدوقة .(1991) .*الجازية والدراويش –رواية –، ط 2.* بيروت، لبنان :دار الآداب.
7. عبد الرزاق بن دحمان .(2013) .*الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة –روايات الطاهر وطار أنموذجا –،أطروحة شهادة دكتوراه في النقد الأدبي الحديث، إشراف أ.د الطيب بودربالة* .كلية الآداب،جامعة باتنة.
8. عبد القادر بن سالم .(2014) .*الخيل تموت واقفة –رواية–،ط 1.* الجزائر :دار الاختلاف.
9. عبد المالك مرتاض .(2011) .*صوت الكهف –رواية* .–الجزائر :دارالبصائر.
10. عمر بن قينة .(2009) .*في الأدب الجزائري الحديث ،ط 2.* الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية.
11. فخر الدين محمد .(2013) .*الحكاية الشعبية المغربية –بنيات السرد والمتخيل–،ط 1.* الرباط :دار نشر المعرفة.
12. محمد التونجي .(1999) .*المعجم المفصل في الأدب* .بيروت، لبنان،ط :2دار الكتب العلمية.
13. محمد الحصان .(2019, 03 28). Récupéré sur https://sotor.com/ .قصة–بنت–الغول/

14.محمد خير الشيخ موسى .(2006) .*النزعة القصصية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري* . الكويت :حولية الرسالة، حوليات الآداب والعلوم الإنسانية، ، العدد .26

15.محمد خير شيخ موسى :النزعة القصصية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري، حولية الرسالة، حوليات الآداب والعلوم الإنسانية، الكويت، العدد 26، 2006،ص.(.s.d) . .13

16.محمد ديب .(1970) .*الحريق–رواية–، تر :سامي الدروبي* .القاهرة، مصر :منشورات مجلة)روايات الهلال(، دار الهلال،العدد.263

17.مصطفى البشير قط .(2010) .*مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم* .الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية.